مغربية تتوكأ على الكتابة لتهش بها على ألمها

الرباط – "قلمي هو عصاي التي أتوكأ عليها وأهش بها على ألمي"، لعل هذه العبارة التي جاءت على لسان بطل رواية "سقف الكفاية" للكاتب السعودي، محمد حسن علوان، تلخص إلى حد بعيد الدور الذي يمكن أن تضطلع به الكتابة في تفريج آلام الإنسان والتخفيف من ثقلها على قلبه.

فلطالما شكلت الكتابة بالنسبة إلى الكثيرين وسيلة للتنفيس عن الضغوط والتعبير عما يختلجهم من مشاعر في مواجهة تصاريف الزمن بشكل تستحيل معه الورقة البيضاء بين يدي الكاتب إلى مساحة تندلق فيها آلامه وآماله، وتحمل عنه وزر حزنه الذي أنقض ظهره، وتواكبه في مسار الشفاء من تبعات الصدمات النفسية التي قد تعترضه في مطبات الحياة.

فاطمة الزهراء أهنوك (46 سنة) واحدة من هؤلاء الذين لجؤوا إلى الدواة والقلم اضطرارا واختيارا في نفس الوقت، وجعلتهما أنيسها في الحياة بعدما أهداها القدر قبل سبع سنوات بنتا جميلة اختارت لها اسم هبة، مع ابتلاء لم تستوعبه أول الأمر يتمثل في إصابة الصغيرة بمرض نادر في الدماغ، لتفتح بذلك معركة علاج ابنتها بكل ما تتطلبه من كفاح وأسفار وسهر.

فاطمة الزهراء أهنوك يراودها اليوم حلمان اثنان، أولهما شفاء ابنتها وثانيهما جمع ما كتبته بين دفتي كتاب

لم تجد فاطمة الزهراء، أو أم هبة، كما تحب أن تلقب نفسها، غضاضة في مشاركة رحلتها وقصتها مع مرض ابنتها، مع القراء، وكيف وجدت في الكتابة "متنفسا" تدون من خلالها اختلاجات صدرها وتخفف عنها بعضا من الضغط.

تقول "حينما كنت حاملا للمرة الثالثة، دعوت الله من كل قلبي أن أنجبها أنثى، أموت عشقا في هذا الكائن الصغير الجميل، أحب ألوان فساتين البنات، وأربطة شعورهن الملونة، وحنانهن ورقتهن وأحاديثهن ودلالهن المبكر"، بهذه المقاطع دلفت فاطمة الزهراء بأعضاء مجموعة على (فيبسوك) تعنى بالكتاب والقراءة، إلى حكايتها، وكيف أن الله استجاب لها.. "ورزقها أنثى، جميلة، فتنت قلبي. أسميتها هبة، لأنها هبة الله إلي بعد كل هذا العمر، رأيتني فيها وكأني عدت ليوم مولدي.. كأنني خلقت من جديد".

تقول أهنوك، ابنة مدينة مرتيل، إنه خلال الشهور الأولى من حياة هبة، "كنت أسقي صغيرتي نبض قلبي، وأنتظر أن أراها تنمو أمام عيني، تكبر، تخطو خطواتها الأولى، تنطق كلماتها الأولى"، قبل أن تنتاب الصغيرة في شهرها السادس حالة غريبة عبارة عن تشنجات وحركات متتالية برأسها وأطرافها سيشخصها الأطباء في ما بعد على أنها "متلازمة ويست"، وهي نوع من الصرع يدمر خلايا الدماغ ويسبب الإعاقة والتخلف الذهني والحركي.

لم تحتج أهنوك وزوجها كثيرا من الوقت لاستيعاب هول الصدمة قبل أن يربطا على قلبيهما وينطلقا في رحلة علاج الصغيرة هبة التي قالت طبيبتها إن "الأمل الوحيد كي تتحسن ويكون أثر المرض ضئيلا هو السيطرة على النوبات بسرعة". رحلة العلاج هذه بلغت لحد الآن سبع سنوات ونصف السنة، تقول أم هبة إنها كانت "عجافا حافلة بالكثير من الألم والسفر والبكاء والدعاء وحصص العلاج والتخاطب والنفسي الحركي والترويض الطبي".

وفي خضم هذه الرحلة الطويلة، ستلجأ أهنوك إلى الكتابة وإلى توثيق رحلة علاج ابنتها، حيث أحدثت صفحة على فيسبوك سمتها "هبة.. رحلة الأمل والألم"، ومدونة على الشبكة العنكبوتية تحت مسمى أم هبة، حيث فاق عدد الحلقات التي سطرتها فيها إلى حد الآن 140 حلقة.

عن هذه التجربة تقول أهنوك في تصريح لوكالة المغرب العربي للأنباء "في البداية كنت أكتب فقط بعض اليوميات عن حالة هبة.. وقد اقترح علي بعض الأصدقاء إنشاء مدونة وتسجيل يوميات هبة.. لكني فكرت قبل تدوين أي شيء أن أكتب رحلة علاج صغيرتنا وكيف اكتشفنا المرض وكل المراحل التي مررنا بها".

وحول ما إذا كان للكتابة وقع جيد على نفسيتها، تقول أم هبة "نعم الكتابة ساعدتني كثيرا في التحرر من الضغوط والأوجاع، أن أبث الحروف وآلامي شيء ساعدني نفسيا، خاصة وأن كل واحد منا يحتاج لأن يحكي مكنونات صدره لشخص ما. وقد شعرت بعد رحيل أمي وعدم وجود أخت لي أن ليس لي أحد أبثه أحزاني إلا الكتابة".

"الكتابة جعلتني أشعر أني لست وحدي"، تقول وهي تتحدث عن دعوات كثيرة تصلها من أناس لا تعرفهم قرؤوا ما تنشره عن تجربتها مع ابنتها وأحسوا بحجم معاناتها، فصاروا قريبين منها يطمئنون عليها وعلى الصغيرة.

الكتابة عن تجربة هبة كان لها وقع على قرائها أيضا، تقر أم هبة موضحة أنها تعرفت على أمهات كثيرات يحملن المعاناة نفسها. "كنت أعتقد أن ما أكتبه حزين ومحبط، لكن الواقع أن أمهات كثيرات وجدنه ملهما فعلا"، تقول أم هبة مضيفة أن "سعيي المتواصل بحثا عن علاج فعال، وعدم انكساري رغم آراء الأطباء المحبطة، أعطى طاقة إيجابية لأمهات كثيرات، أعطاهن القدرة على مواصلة الكفاح والتشبث بالأمل".

ولم تخف أم هبة سعادتها وهي تتحدث عن رسائل كثيرة تصلها يوميا من "أخواتها في المحنة"، أمهات يخبرنها أنها تتكلم بلسانهن جميعا، وتعبر عن خلجات نفوسهن، بل إن بعضهن تخطين حاجز الصمت وحساسيتهن المفرطة تجاه مرض صغارهن.

وعن أسلوبها الماتع في الكتابة، الذي وجده الكثير من قرائها "سلسا ومنسابا" ويساهم في إيصال رسالتها إلى قلوبهم مباشرة، تعزو أم هبة ذلك إلى شغفها بقراءة الأدب منذ صغرها ما جعلها تمتلك ناصية الحرف وتتقن فن التعبير، حتى أنها كانت تجد ضالتها دائما فيه.

وإذا كانت رحلة علاج هبة ما زالت مستمرة منذ أزيد من سبع سنوات، فإن أم هبة يراودها اليوم حلمان اثنان، أولهما شفاء ابنتها الصغيرة، وثانيهما جمع ما كتبته من حلقات حول رحلة علاجها بين دفتي كتاب يوثق للتجربة الصعبة، ويرسخ دور الكتابة في مواجهة أوجاع الحياة.

الكتابة نوع من العلاج (لوحة للفنانة هيلدا حياري)

التراث الشعبي ملهم للفنون (لوحة للفنان حسن الشرق)

التراث ليس مادة متحفية في محل أنتيكات

محمد أمين عبدالصمد: الثقافة الشعبية تخلخل الأوضاع الجامدة

تتعدد تساؤلات التراث الشعبي وتجلياته على كافة أشكال الإبداع من شعر ورواية وقصة وفن تشكيلي وأغنية ومسرح وسينما، لكنه لا يلقى الاهتمام من قبل الأكاديميات والهيئات الرسمية بل تواجه الكثير من فنياته الاندثار في ظل اتهامات بالجهل والتخلف. "العرب" كان لها هذا الحوار مع الباحث المصري محمد أمين عبدالصمد حول أهم قضايا التراث اليوم.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

محمد أمين عبدالصمد باحث متخصص في الأنثروبولوجيا الثقافية والفنون الشعبية علاوة على كونه كاتبا مسرحيا وروائيا، وهو يشرف على إدارة التراث الشعبي بالمركز القومي للمسرح المصري، خاصة أنه قدم العشرات من الدراسات القيمة التي رصدت وحللت حضورهما ـ الثقافة والتراث الشعبيين ـ في المجال الاجتماعي والثقافي والإبداعي، كما استلهم الكثير من ذلك التراث في أعماله المسرحية التي عرضت على خشبة العديد من المسارح مصريا وعربيا.

بداية يؤكد عبدالصمد أن التراث الشعبي يشكل رافدا مهما من روافد تشكيل الثقافة، فهو ليس مادة متحفية يتم التعامل كفرجة في بازار، أو مجسم في محل أنتيكات، لذلك فإن الكثيرين لا ينتبهون إلى أن التراث "شعبيا أو تاريخيا.. إلخ" هو من محددات سلوك الفرد والجماعة، ولا يمكن فهم منظومة قيم المجتمع سواء الفردية أو المجتمعية إلا بفهم التراث، خاصة أن عمليات الغرس الثقافي التي يخضع لها الإنسان في طفولته تجد مادتها في التراث الثقافي.

كما يرى الباحث أن المنتج التراثي يمثل أداة اتصال جماهيري، خاصة أن مبدع هذا التراث الفني هو في الأساس فرد ابن مجتمعه، وتلك العملية شكلت طبعه ووجدانه، دون مصادرة دور المبدع أو ابن الجماعة الشعبية في إعادة إنتاج العنصر الثقافي، لتتناسب مع المستحدث من السياقات الثقافية/ الاجتماعية، وهو إنتاج يحاول به الفرد التنفيس عن نفسه، وكذلك المسكوت عنه، كما تعتبر الأعمال الأدبية وثيقة لمرحلة تاريخية محددة، تؤرخ لها اجتماعيا وسياسيا.

التعامل مع التراث

يقول عبدالصمد "هناك استلهامات كثيرة وتوظيف المأثور الشعبي في الإبداعات خاصة في مجالات الموسيقى والمسرح والفنون التشكيلية، بقدر ما، لكن السينما بشكل أقل لمحاكاتها للسينما الأميركية كثيمات وموضوعات وتكنيكات. ولكن الحقيقة أن السياق التاريخي هو الذي يعطي القيمة والاهتمام للإبداعات التي تعتمد على الثقافة الشعبية، ففي فترات تحقق الدولة الوطنية وبروز أهدافها ودعم حضورها يكون الاهتمام بثقافة الوطن والإبداعات المرتبطة به والمعبرة عنه".

ويضيف في ما يخص الاهتمام من المؤسسات الرسمية بالتراث إن "الأمر يفتقد التنسيق بين المؤسسات المتعددة التي تعمل في مجال الثقافة الشعبية وفنونها، كما أن تلك المؤسسات لا يملك أغلبها خطة عمل على المدى المتوسط والبعيد، لذا تأتي أعمالها في إطار الصدفة أو الاقتراح الفردي. والأمر الذي يحتاج مراجعة أيضاً هو افتقاد تلك المؤسسات لكوادر حقيقة مؤهلة للتعامل مع الثقافة الشعبية جمعا وتصنيفا ودراسة، وطرحاً لأفكارها ومناقشتها. رغم العدد الكبير جداً من خريجي المؤسسات التعليمية التي تحمل على لافتتها توصيف 'الشعبية'".

ويلفت إلى أن التعامل مع المأثور الشعبي يخضع لعدة مستويات، فإذا كان التراث التاريخي والفقهي والعقائدي يخضع لمراجعة تتراوح بين فترة وأخرى، حسب تقبل المجتمع وانفتاحه وقابليته لمراجعة أفكاره واختباره، فالتراث الشعبي بجميع أقسامه يخضع لمراجعة وإعادة قراءة، ومثله مثل مجمل الأفكار الموروثة، فالتعامل مع التراث مجادلة وإبداعاً يخضع لشروط تاريخية وسياقية. وفي مجال الفنون والإبداع يأتي الاستلهام، وهو كمصطلح حالة من وجود إبداعات الثقافة مُتناصَة أو مُوظَفة أو مُقتبَسة. في عمل فني مثل "النص أو العرض المسرحي، أو العمل التشكيلي، أو الاستلهام الموسيقي.." يعبر عن وجدان وفكر وفلسفة مبدع فرد- حتى ولو كان منتمياً إلى منظومة الثقافة الشعبية ـ متوجهاً به إلى جمهور متلق خارج السياق الشعبي ـ في المسرح أو التلفزيون أو السينما- حتى وإن كان بين هذا الجمهور أناس ينتمون لهذه الثقافة الشعبية.

ويشير عبدالصمد إلى أن الاستلهام - وإن تعددت أشكاله - يُخرج العنصر التراثي من نسقه الشعبي إلى نسق العرض الجماهيري والذي تُفرض فيه وعليه رؤية صانعيه، إلا أن هذا النسق الجديد لا يطرق سوى بابين، الأول: باب الإحياء وهو إعادة خواص مفقودة لفن فقد وجوده على الساحة الفنية المعاصرة إلا أن ملامحه التراثية باقية واضحة في الذاكرة الفنية. وباستعادة خواصه يستعيد وظيفته وجمالياته وبالتالي وجوده. فالإحياء هدف في حد ذاته ولا يعيب هذا الإحياء تحديث أدواته ووسائله عن طريق الاستفادة من المنجزات الحضارية والتكنولوجية بشرط الحفاظ على عناصره الممثلة له وليس فقط عناصره الرئيسية.

أما الباب الثاني فهو باب التوظيف ويعني إيجاد دور جديد لعنصر فني يتسق ويتوافق لضرورة ما في عمل فني متكامل سواء كان هذا الدور نفعيا أو جماليا. والعنصر الفني هنا هو ما اختير من مادة التراث، والضرورة هي الضرورة الدرامية. أما العمل الفني المتكامل فهو العرض المسرحي. حيث تتحول المادة التراثية إلى أداة فنية توظف لتؤدي دوراً دلالياً غير مقصود به ذات المادة، وإنما استكمال العمل الفني ولو كانت المادة التراثية هي قوامه.

ويقول الباحث إن "توظيف التراث يتم بأشكال عدة منها تفجيره للوصول إلى جوهر ما لم يكن واضحاً في السياق الشعبي، والتلامس معه لتحقيق أصالة العمل الفني. ويلجأ أكثر المبدعين إلى التوظيف تاركين باب الإحياء والاستلهام كقيمة تأصيلية دفعت المبدعين إلى الأخذ من التراث الشعبي لتحقيق الحلم في تأسيس فنون مصرية لها ملامح هذا المجتمع وتعبر عنه. لذلك التعامل مع التراث الشعبي ينشط ويتراجع حسب رؤية المجتمع وتقديره لذاته".

ثقافة مقاومة

يشير عبدالصمد إلى أن الموال القصصي يعد مستودعا لآمال الجماعة الشعبية وتنفيسا عن آلامها، واستشرافا لطموحاتها ككيان جمعي تشغله البطولة بشكلها الفردي، الذي تدعمه ثقافة تُعلي من قيمة البطولة الفردية وتقدسها، وقد تعاظم دور الموال القصصي حتى أنه استقطب جمهورا كثيرا من نوع قصصي آخر وهو جمهور السير الشعبية، كما استقطب عدداً كبيراً من المغنين الشعبيين.

ويرى أن السينمائيين نظروا بعين الاعتبار إلى المأثورات القصصية الشعبية، فأُنتجوا في بداياتهم أفلاما عن عنترة وأبي نواس وجحا، وفيما بعد كان الموال القصصي، صاحب نصيب من الاستلهام بدأه هنري بركات في فيلمه "حسن ونعيمة" المأخوذ عن موال بنفس الاسم، وتبعه حسام الدين مصطفى بفيلم "أدهم"، ثم "بهية" لرمسيس نجيب، ثم "شفيقة ومتولي" لعلي بدرخان، ثم "المغنواتي" لسيد عيسى عن موال "حسن ونعيمة".

ويؤكد الباحث تباين تناول السينمائيين للموال فمنهم من قدمه بشكل بسيط مع تغيير النهاية لتتوافق مع رغبة الجمهور من أفلام هذه الفترة مثل "حسن ونعيمة" وهناك من حمّله مضمونا سياسيا هو خطاب هذه الفترة مثل "أدهم" و"بهية" وهناك استلهام لإعطاء فكرة الرفض والمقاومة مثل "شفيقة ومتولي"، لكسر ما هو مستقر من جمود وركود مثل "المغنواتي".

محمد أمين عبدالصمد

الثقافة الرسمية هي نتاج السلطة التي تحكم وتسيطر على المجتمع وفي مقابلها الثقافة الشعبية المقاومة لها

ويحكم الفيلم المُعد عن نص شعبي تقنيات السينما مما يخلق مجالا تعبيريا مختلفا عن المجال الذي يخلقه راوي القص أي وسيط مختلف، ولكل وسيط سماته وخصائصه وتقنياته.

ويشدد عبدالصمد على أن الثقافة الرسمية هي نتاج السلطة التي تحكم وتسيطر على المجتمع، ومن يرتبط بها عضوياً أو وظيفياً لذلك مثلت الثقافة الرسمية ترسيخا لوضع قائم ومسوغ له، وكانت في مقابلها الثقافة الشعبية التي مثلت أبناء الطبقات الشعبية فكانت ثقافة مقاومة، ومدعوة لتغيير أوضاع قائمة مجحفة لهم، واحتوت الثقافة الشعبية وفنونها عناصر تحاول خلخلة الأوضاع القائمة الجامدة المدعومة من المستفيدين منها.

أما السلطة الفقهية فهي تمثل في رأيه جزءا من السلطة الرسمية لذلك تقوم بدورها في ترسيخ خطاب الثقافة الرسمية وتدافع عنه من مدخل فقهي يعطي لخطابها وأقوالها مسحة من القداسة لاستعانتها في طرحها بالمقدس من خلال تفسيراتها الداعمة لأوضاعها الطبقية والفكرية، لذا لا نتعجب من إلصاق الاتهامات العقائدية ببعض عناصر الثقافة الشعبية ـ اتهامات قد تصل إلى حد التكفير- ما دامت ضد الراسخ والمحقق لمصلحة السلطة الرسمية ومن يرتبط بها ومنهم أصحاب الأصوات الفقهية الرسمية.

ويكشف عبدالصمد أن الاهتمام بالمأثورات الشعبية في المسرح أكثر حظا من السينما، حيث تعددت النصوص المسرحية المستلهمة من القصص الشعبية العربية والمصرية، واشتهرت أسماء رائدة مثل توفيق الحكيم وألفريد فرج وغيرهما.